الفصل الثاني:

موقف تفسير المنار من روايات أسباب النـزول والإسرائيليات

د. أحمد مفلح القضاة(*)

ملخص:

يعد تفسير المنار -الذي اشترك في تأليفه الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا- من الجهود التي أسهمت في النهضة الفكرية في العصر الحديث، إذ سعى هذا التفسير إلى تقديم فهمٍ صحيح للنص القرآني، وإزالة ركام المرويات الضعيفة التي حجبت أنوار فهم القرآن.

وكان لتفسير المنار موقف تجاه فهم النص القرآني، بعيداً عن تأثير الروايات الضعيفة والمختلفة. وبرز هذا الموقف بشكلٍ واضح من خلال معالجة هذا التفسير للروايات في أسباب النـزول والإسرائيليات.

وقد جاء هذا البحث لتجلية هذا الموقف وبيانه.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه الأمين وآله وصحبه وبعد:

فإن تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار من أبرز دعائم النهضة الفكرية في العصر الحديث، حيث شهد العصر السابق لمجيء زعماء الإصلاح الديني والفكري - أعني جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومن بعدهما رشيد رضا- حالة من الجمود والانغلاق، قادت إليها تراكمات عديدة أهمها انشغال علماء الأزهر بالشروح والحواشي والتعليقات، حتى صار جلّ همهم أن يفهموا عبارات من سبقوهم ويفكوا

(*) دكتواره في أصول الدين، أستاذ مساعد، جامعة الزرقاء الأهلية، الأردن.

obeikandl.com

ألغازها، وكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى مجادلات كلامية لا ينبني عليها نفع ولا تنطوي على كبير فائدة، مما دفع إلى انعزال طائفة العلماء عن هموم المجتمع ومشكلاته.

أما وضع مصر في ذلك الزمان فقد كان نموذجاً للاستبداد، والظلم، والفساد الإداري والمالي، والحكم الفردي، والمديونية الكبيرة. وكانت مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية التي كانت في أواخر عهدها. وبسبب تزايد أهمية مصر على المستوى الدولي آنذاك، أصبحت تبعيتها للدولة العثمانية تبعية شكلية فحسب[1].

وفي هذا الوقت وفد جمال الدين الأفغاني على مصر بدعوة من رياض باشا ناظر النظار (رئيس الوزراء) وقرر له عند قدومه مرتباً ضخماً وصل إلى عشرة جنيهات شهرياً. وهناك بدأ الأفغاني نشاطه الفكري والتعليمي، لكنه نشاط مختلف تماماً عما عهده الناس من علماء الأزهر، وتعليم من نوع جديد أحيا في الناس الأمل بالنهوض وبشرهم بقدرتهم على تجاوز عصر الخضوع والاسترقاق.

وكانت كلمات الأفغاني في دروسه ومواعظه تجسد ما يحمل من فكر وقيم، فلم يكن طامعاً في نسب أو جاه أو مال، بل كان كل همه أن يبعث في الشباب من حوله، عزمة الشباب وغيرة الأبطال. وأن يوقظ في حسهم مشاعر الغيرة على الوطن والدين، والثورة على الظلم والتسلط والقهر والفساد. فمن كلماته المأثورة التي حفظها من حوله ورددوها وجعلوها شعاراً يعملون لتحقيقه "شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسود"، "من رهب الملوك بغير جريرة فهو الصعلوك"، "اعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام، أقتل له من المدفع والحسام"، "أمة تطعن حاكمها سراً وتعبده جهراً لا تستحق الحياة"[2].

(١) عوض، محمود، متمردون لوجه الله، دار الشروق ط٢، سنة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٠.

وعلى مثل هذه الأفكار تربى عدد من الذين صار لهم ذكر، ليس في مصر وحدها بل في العالم كله، منهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول والشيخ عبد الله النديم، ومحمود سامي البارودي وغيرهم.

وجاء دور محمد عبده الذي صحب الأفغاني طويلاً وأنشأ معه جريدة العروة الوثقى وتأثر بأفكاره وسلك سبيله، ثم جاء محمد رشيد رضا بعد أن تأثر ببعض ما قرأه في العروة الوثقى، فقد جاء من لبنان إلى مصر، ليلتقي بالأستاذ الإمام، ويتشرب أفكاره ودعوته بعد أن تضلع بالعلوم الشرعية على شيوخه في لبنان.

وبذلك اكتملت جوانب شخصية رشيد رضا؛ إذ وعى العلوم الشرعية فصار من أبرز العلماء، واستقى من أستاذه فكر الدعوة والنهضة وقيام الحضارة وتقدم المجتمعات، وكان قد أشار على أستاذه أن يضع تفسيراً للقرآن الكريم، فبدأ الشيخ محمد عبده يلقي دروسه المنتظمة في التفسير، ورشيد رضا يسجّل ما يدور في تلك الدروس ويعرضها على شيخه.

وبعد أن توفي الشيخ محمد عبده واصل تلميذه المسيرة، فبدأ يكتب التفسير مكملاً جهد أستاذه حتى وصل إلى الآية (٥٢) من سورة يوسف، حيث وافته المنية رحمه الله.

وهذا التفسير الجليل موسوعة ضخمة امتازت بأنها عالجت أمراض الأمة ومشكلاتها من خلال النظرة الموضوعية والفهم الصحيح للنص القرآني. واعتنت بمقاصد القرآن وهدايته وما نبه عليه من السنن في الكون، والمجتمع والحياة، والتاريخ والأمم.

وجاء هذا التفسير ليضع الناس على النهج الواضح والسبيل القاصد، ويقول لهم: هذا سبيل العزة والتمكين إن أردتم، وطريق الصلاح والفلاح إن أحببتم، وليس وراء ذلك إلا مزيد من الذل والفقر والظلم. فأحدث ثورة على الجهل والظلم والاستبداد، ورفض كل مصطلحات التواكل والتبعية والتهرب من المسؤولية، ووضع الرجال أمام مسؤولياتهم لينهضوا بها، غير عابئين بما تستلزم تلك المرحلة من تضحيات وتكاليف.

وكان لا بد لهذا التفسير من أن ينهج منهجاً فريداً متميزاً ليتخلص من المعوقات والعقبات. فهناك فتاوى وأقاويل وروايات تناقلها الناس، ووثقوا بها، حتى شكلت في أذهانهم أفكاراً مصدرها الخرافات والأوهام والشعوذات. وركن الناس إليها واقتنعوا بها وليس من السهل أن تمسح من أدمغتهم. فوضع أسساً قوية ثابتة في كيفية التعامل مع القرآن الكريم وفهمه وتدبره، وكيفية تحرير النص القرآني من أسر الروايات الكثيفة التي شكلت حجاباً دون الفهم الصحيح، وكيفية التعامل مع هذه النصوص نقداً وتمحيصاً وتأويلاً إذا اقتضى الأمر، وأدى ذلك إلى أن تبرز –بوضوح– النظرة الموضوعية للقرآن الكريم، ووحدة النص القرآني وترابطه. وكان لاعتناء رشيد رضا، ومن قبله الشيخ محمد عبده بعلم البيان، أثر كبير في فهم النص القرآني فهماً أقرب إلى الحق وأجدر بالقبول.

وكان من أبرز العقبات التي حالت دون الفهم الصافي للقرآن الكريم، ما ولع به بعض المفسرين من ذكر الروايات والنقول والآثار التي تمزق النص الواحد، وتجعله أشلاء متناثرة خاصة ما أدخلوه تحت أسباب النزول، وما نقلوه عن أهل الكتاب مما يسمى بالإسرائيليات. وكان لتفسير المنار موقف واضح تجاه كل ذلك، وفي هذا البحث محاولة لتجليته وبيانه.

المبحث الأول: الأسس التي قام عليها تفسير المنار:

قام تفسير المنار على مجموعة من الأسس والقواعد التي ينطلق من خلالها في توجيه معنى النص القرآني وبيانه، وهذا بيانها بإيجاز:

أولاً : الوحدة الموضوعية، فالسورة مهما تعددت موضوعاتها وتشعبت القضايا التي طرقتها، فإنها ترجع بجملتها إلى موضوع محوري ترتبط به ارتباطاً وثيقاً.

ثانياً : تجلية الهداية القرآنية؛ لأن المقصد الأساس للقرآن الكريم هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى طريق الحق والخير. وهذا الأساس يقتضي عدم الانشغال، في المباحث الجانبية أثناء التفسير، عن الهدف الكبير الذي يسعى لتحقيقه.

فكثيراً ما انشغل المفسرون بمباحث لغوية أو كلامية أو فقهية.. تجعل الباحث عن الهداية القرآنية يضيع في غمرة تلك المباحث دون فهم للنص القرآني.

ثالثاً : عدم تجاوز النص فيما ورد مبهماً في القرآن، فكل ما سكت القرآن عن بيانه، مما ليس فيه عبرة للمسلمين، فلا حاجة لذكره وبيانه. وقد تكفل هذا التفسير بالتنبيه على أهمية الوقوف عند حدود النص القرآني.

رابعاً : رفض البدع والخرافات، والتحذير من الإسرائيليات والأساطير، وردّ كل ما يتصل بذلك وبيان ما له من آثارٍ سيئة على فهم النص القرآني.

خامساً : احترام العقل وتقديمه، فالعقل والوحي أثران من آثار الله في الوجود، وآثار الله تهدي إليه وتدل عليه، وهذه النقطة تتصل بالنقطة السابقة؛ لأن من احترام العقل رفض البدع والخرافات والروايات التي يحكم العقل ببطلانها.

ولا بد من الإشارة إلى أن المبالغة في تقديم العقل وتحكيمه أدت إلى ظهور بعض الآراء المتطرفة لدى مدرسة المنار.

سادساً : محاربة التقليد، ورفض الاتباع بغير دليل أو بصيرة، وهذا أيضاً من احترام العقل.

سابعاً : التأكيد على شمول القرآن وعمومه؛ لأنه جاء هداية للناس في جميع الأزمان والأماكن، فلا بد أن يكون بهذا الشمول والعموم.

ثامناً : التأكيد على أن القرآن هو المصدر الأول للتشريع، والأصل الأول لهذا الدين، وأن حكم الله يلتمس فيه أولاً فإن وُجد فبه يؤخذ وعليه يعوّل، ولا يحتاج معه إلى مأخذ آخر، وإن لم يوجد فيه، التمس في سنة رسول الله ﷺ[1].

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، ١٩٥٤، ١٢٠/٥.

تاسعاً : بيان سنن الله في الكون والإنسان والحياة، إذ اعتنى هذا التفسير بشرح هذه السنن وآثارها ليستيقظ المسلمون من غفلتهم.

عاشراً : الاهتمام بالعلوم الكونية وتسخيرها لفهم الآيات القرآنية، وبيان آيات الله في الكون مما يؤكد على عظمته وحكمته وإقناع الناس بالإيمان به.

حادي عشر : الدفاع عن الإسلام ودحض الشبهات، خصوصاً وأن هذا التفسير جاء في وقت ضعُف فيه المسلمون وتكالب عليهم الأعداء موردين الشبهات والافتراءات، محاولين تشويه صورته ليردوا الناس عن الإيمان به.

ثاني عشر : بروز الاتجاه العقدي في هذا التفسير، من خلال التأكيد على مميزات العقيدة الإسلامية ورد الشبهات عنها، وبيان أن الإسلام هو دين العقل، ومحاربة التعصب المذهبي، ورفض مرويات أسباب النزول في تفسير آيات العقيدة.

ثالث عشر : الاهتمام باللغة العربية وآدابها، وبالبلاغة وعلومها[1]؛ لأن هذا القرآن نزل بلسانٍ عربي مبين، ولا يمكن فهمه بعيداً عن التفقه في العربية والتمرس بمعرفتها.

رابع عشر : رعاية السياق القرآني وترابطه، بحيث يكون الانتقال من آية إلى أخرى، ومن موضوع إلى آخر بسلاسة ورفق، وهذا يؤدي إلى رد كثير من الروايات التي تمزق السياق الواحد وتجعله أشلاء مبعثرة.

وكان لهذه الأسس، الأثر الكبير في التعامل مع النص القرآني، وفق منهجية واضحة، ترفض كل رواية أو قول يؤثر سلبياً على السياق القرآني ووحدته الموضوعية، أو تتعارض مع شيء من مقررات العقيدة، حتى ولو رويت تلك الرواية بأسانيد صحيحة. وتأكيداً لهذه المنهجية يقول رشيد رضا عند حديثه عن عصمة الأنبياء:

---

(١) الزغول، محمد، الخصائص المميزة لتفسير المنار الورقة البحثية التي تقدم بها الباحث في هذا الكتاب، ص ١٣-٢٠.

"فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يُقبل على أي وجه جاء.. وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة، من الأخبار التي يجب القطع بكذبها[1].

ويظهر مما سبق أن لتفسير المنار موقفاً متميزاً تجاه الروايات والآثار عامة، وسيكتفي الباحث بالحديث عن هذا الموقف تجاه قضيتين هما: روايات أسباب النزول، والإسرائيليات. ويجدر التنبيه على أن هناك روايات كثيرة لا تدخل تحت هذين القسمين كأقوال بعض الصحابة والتابعين في التفسير، والتذكير أيضاً بأن الإسرائيليات دخلت أحياناً في بعض روايات أسباب النزول.

المبحث الثاني: أسباب النزول وموقف تفسير المنار منها.وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: أسباب النزول.

تحدث العلماء كثيراً عن أسباب النزول، وألفوا فيها كتباً مستقلة اشتهر منها كتاب الواحدي المسمى "أسباب النزول"، وكتاب السيوطي المسمى "لباب النقول في أسباب النزول" وأشار الزركشي إلى أن ممن أفرد هذا الموضوع بالتصنيف علي بن المديني شيخ البخاري[2].

ولابن حجر العسقلاني كتاب في أسباب النزول سماه "العجاب في بيان الأسباب " وقد حققه مؤخراً ونشره الدكتور عبد الحكيم الأنيس[3].

وعناية العلماء بعلم أسباب النزول مؤكدة على أهمية دراسته للمسلمين عامة ولطالبي علوم التفسير والقرآن خاصة، لما فيه من فوائد جليلة في فهم القرآن الكريم،

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٢٦.

(٢) الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت، ج١، ص٢٢.

(٣) صدر عن دار ابن الجوزي سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

وتجلية حكمة التشريع، وإزالة ما يبدو من إشكالات في ظاهر النص لدى بعض الناس، وغير ذلك من الفوائد التي ذكرها العلماء[١].

١- تعريف سبب النـــزول:

"هو ما نزلت الآية أو الآيات أيام وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمه" ومعنى ذلـــك أن تقع حادثة في زمن النبي ﷺ أو يوجه إليه سؤال، فتنزل الآية أو الآيات علـــى أثـــر ذلك لبيان ما يتصل بتلك الحادثة أو إجابة ذلك السؤال[٢].

ويستفاد من هذا التعريف أن الأحداث التي قصها القرآن علينا كـــسائر قـــصص الأنبياء والأمم السابقة، وكذا ما أخبر القرآن عن حدوثه فيما يستقبل من الزمان، ليس من أسباب النـــزول في شيء.

٢- طريق معرفة سبب النـــزول:

يعرف سبب النـــزول بالنقل عن الصحابة الذين عاصـــروا التنـــــزيل وشـــهدوا الحوادث والوقائع مع رسول الله ﷺ[٣].

ولكن الروايات التي وردت عن الصحابة، رضوان الله علـــيهم، لم تكـــن بـــصيغة واحدة، بل بصورٍ مختلفة. فقد يقول الصحابي: سبب نزول هذا الآية كذا، وقد يقول: حدث كذا فأنزل الله آية كذا فنزلت، وقد يقول: نزلت هذه الآية في كذا.

فالصيغة الأولى (سبب نزول الآية كذا) تعدّ نصاً في السببية لا تحتمل غيرها، فـــإذا صحت الرواية بسندها إلى الصحابي فإنها تكون سبباً لنزول الآية؛ لأن قول الـــصحابي

---

(١) عباس، فضل حسن، إتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٧، ج١، ص٢٥٨-٢٧٩.

(٢) الزرقاني، محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتـــاب العـــربي، بيروت، ١٩٩٦، ١٠٦/١، وانظر د. فضل حسن عباس، إتقان البرهان ٢٥٣/١.

(٣) عباس، فضل حسن، إتقان البرهان، ٢٨٨/١.

فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمه حكم المرفوع؛ إذ يبعد أن يقول الصحابي ذلك من تلقاء نفسه.

ومثل ذلك يُقال في الصيغة الثانية (حدث كذا فنزلت، أو فأنزل الله..) فإن دخول هذه الفاء يُشعر أن نزول الآية مترتب على الحادثة أو السؤال[1].

أما الصيغة الثالثة وهي (نزلت هذه الآية في كذا) فإنها تحتمل السببية كما تحتمل بيان الحكم وتفسير الآية، قال الزركشي: "وقد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها. وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند"[2]. وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند، وكذا مسلم وغيره، وجعلوا هذا مما يُقال بالاستدلال والتأويل، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع[3].

وبمعرفة الفرق بين هذه الصيغ، يمكن استبعاد كثير من الروايات التي أوردها بعض العلماء في تفاسيرهم ومؤلفاتهم؛ لأنها ليست من أسباب النزول في شيء. ويمكن أيضاً الجمع بين الروايات المتعددة في سبب نزول الآية الواحدة أن إحدى الروايات هي السبب، والأخرى داخلة في بيان حكم الآية. وتجدر الإشارة إلى أنه ليس لكل آية من آيات القرآن الكريم سبب نزول، ولكن الآيات قسمان: قسم نزل ابتداءً ليبين للناس ويرشدهم، وهو أكثر القرآن، وقسم نزل إجابة لسؤال أو تعقيباً على حادثة حدثت، ليبين حكمها.

---

(١) الزرقاني، مناهل العرفان، ١١٤/١ – ١١٥ وعباس، فضل حسن، إتقان البرهان ٢٨٨/١.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣١/١ – ٣٢.

(٣) ابن الصلاح، مقدمة ابن صلاح في علوم الحديث، علق عليه صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص٢٤.

وهذه القواعد في معرفة سبب النـــزول تشكل منطلقاً مهماً للحديث عن موقـــف صاحب المنار من الروايات الواردة في أسباب النـــزول، لأنها تخرج كثيراً من الروايات من دائرة أسباب النـــزول، كالروايات الواردة في آيات ليس لهـــا أســـباب نـــزول، والروايات التي أدخلت في أسباب النـــزول ما كان حديثاً عن وقت سابقٍ على نزول القرآن، والروايات التي لم تصرح بالسببية، ونحو ذلك.

– المطلب الثاني: موقف تفسير المنار من الروايات الواردة في أسباب النـــزول:

يمكن توضيح نظرة تفسير المنار إلى أسباب النـــزول من خلال المبادئ التالية:

أولاً: الحفاظ على تماسك السياق القرآني وربط أوله بآخره، ورفض أية رواية يفهم منها تمزيقه أو تأويلها ومحاولة فهمها في ضوء ذلك.

ثانياً : تحديد الآيات التي يلتمس لها سبب نزول، والآيات التي لا تحتاج إلى ذلك، من خلال الموضوعات التي تتحدث عنها، أو من خلال إمكانية فهـــم الآيـــات دون حاجة إلى معرفة سبب النـــزول.

ثالثاً : ضرورة أن يكون سبب النـــزول مشاراً إليه في الآية أو ظاهراً فيهـــا، لا أن يُؤتى به من رواية خارجة عن النص القرآني.

رابعاً : النظر في عموم النصوص القرآنية دون تقييدها بحوادث معينة، إذ يمكـــن أن تنزل آيات من القرآن تكون مشتملة بعمومها على تلك الحوادث دون أن تكون تلك الحوادث أو بعضها، سبب النـــزول.

خامساً : رفض قضية تعدد الأسباب للآية الواحدة (أو التنـــزل الواحد) إذا كـــان الفاصل الزمني بين السببين أو الأسباب طويلاً.

وهذه المبادئ لا بد لها من توضيح وبيان، وسيتم تناولها واحداً تلـــو الآخـــر مـــع التدليل على كل واحدٍ منها بما يتسع له المقام وتصح به الدعوى.

أولاً- الحفاظ على تماسك السياق القرآني:

يرى صاحب المنار أن الرواة الذين ينقلون أسباب النـــزول يتّبعون الرواية دون أن ينظروا إلى سياق الآية والآيات التي قبلها وبعدها، ويرى أنهم بهذا الصنيع يمزقون النص القرآني ويتعاملون مع كل آية وكأنما نزلت وحدها، دون ارتباط بما قبلها وما بعدها، وهم بذلك يزيدون النص غموضاً وتعقيداً وبُعداً عن الفهم الصحيح. وفي ذلك يقول: "ومن عجيب شأن رواة النـــزول أنهم يمزقون الطائفة الملتئمة مـــن الكـــلام الإلهـــي ويجعلون القرآن عضين متفرقة، بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها عن بعض، وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكل جملة سبباً مستقلاً، كمـــا يجعلون لكل آيةٍ من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً"(١).

ويُمثّل لما ذكره بنماذج عديدة، فعند الحديث عن الآيات الواردة في تحويل القبلـــة من بيت المقدس إلى البيت الحرام يقول:

"انظر هذه الآيات -آيات تحويل القبلة- تجد إعجازها في بلاغـــة الأســـلوب أن مهدت للأمر بتحويل القبلة ما يشعر به في ضمن حكاية شبهة المعترضين التي ســـتقع منهم، وبتوهين هذه الشبهة باستنادها إلى السفهاء من الناس وإيرادها مجملة، وبوصلها بالدليل على فسادها وبذكر هداية الصراط المستقيم الذي لا التواء فيه ولا اعوجـــاج، ولا تفريط عند سالكيه ولا إفراط، وبذكر مكانة هذه الأمة بدينها، واعتدالها في جميع أمرها وببيان الحكمة في جعل القبلة الأولى قبلة ثم التحويل عنها، وبالتلطف في الإخبار عما سيكون من ارتداد بعض من يدعون الإيمان عن دينهم افتتاناً بالتحويل، وجهـــلاً بالأمر، إذ أورد الخبر في سياق بيان الحكمة حتى لا يعظم وقعه على الـــنبي والمـــؤمنين وببيان أن المسألة كبيرة، على غير المنعم عليهم بالهداية الإلهية التي سبق ذكرها، وهـــي الإيمان الكامل بمعرفة دلائل المسائل وحكم الأحكام، ثم بتبشير المؤمنين المهتدين الثابتين

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج٢، ص١١.

على اتباع الرسول ﷺ بإثابة الله إياهم برأفته ورحمته وفضله وإحسانه، وبعد هذا كله أمره بالتحول أمراً صريحاً كما سيأتي في تفسير بقية الآيات، أفيصح في مثل هذا السياق الموثق بعض جمله وآياته ببعض أن تفك وثقه ويجعل نتفاً نتفاً، ويقال إن كل جملة منه نزلت لحادثة حدثت، أو كلمة قيلت؟ وإن أدى ذلك إلى قلب الوضع وجعل الأول آخراً والآخر أولاً، وجعل آيات التمهيد متأخرة في النزول عن آيات المقصد؟ أتسمح لنا اللغة والدين بأن نجعل القرآن عضين، لأجل روايات رُويت، وإن قيل إن إسناد بعضها قوي بحسب ما عُرف من تاريخ الراوين[1]؟

والإشارة هنا من صاحب المنار إلى جملة الروايات التي أوردها كتب أسباب النزول في حادثة تحويل القبلة ومنها:

قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فولِ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ (البقرة: ١٤٤). فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (البقرة: ١٤٣). ﴿وقال السفهاء من الناس: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ (البقرة: ١٤٣)، فأنزل الله: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ البقرة: ١٤٣) إلى آخر الآية[2].

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج٢، ص١١.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، لباب النقول في أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٢٨-٢٩.

وعن البراء: "مات على القبلة قبل أن تحول رجالٌ وقتلوا فلم ندرِ ما نقول فيهم فأنزل الله: "وما كان الله ليضيع إيمانكم"[1]. فهذه الروايات تُشعر بأن الآية الواحدة قد نزلت أبعاضاً وأن آية ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ (البقرة: ١٤٤) نزلت قبل آية ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً..﴾ (البقرة: ١٤٣) وهذه نزلت قبل آية (سيقول السفهاء). وهذا ما لا يقبله صاحب المنار لما يرى فيه من تمزيق للسياق المحكم المترابط، وتقديم المؤخر وتأخير المقدم.

إن الحفاظ على قاعدة السياق يقتضي البحث عن مخرج من هذه الروايات، وما دامت الآية واضحة ومفهومة دون اللجوء إلى الاستعانة بسبب النزول، فإنه يرى أن لا حاجة لمثل هذه الروايات التي تمزق النص الواحد، ولا يفهم من هذا أن صاحب المنار يسارع إلى رد الروايات الصحيحة أو توهينها ورفضها، بل غاية ما يمكن فهمه من كلامه أنه يريد الحفاظ على النص القرآني متماسكاً موثقاً، فإذا وردت رواية تخالف هذه القاعدة فإنه يمكن تأويلها أو فهمها بطريقة لا تؤثر على ترابط السياق، وليس بالضرورة أن تكون تلك الرواية سبباً للنزول.

وفي قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ (البقرة: ١٦٣-١٦٤). ويقف صاحب المنار مليّاً مع هذه الآيات مبيناً وجه الترابط والصلة بينها، ذاكراً أسباب النزول الواردة وأثرها على تفكيك الآيات، يقول: قال السيوطي: أخرج سعيد بن منصور في سننه والفريابي في تفسيره والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الضُحى قال: لما نزلت ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾

(١) البخاري، الجامع الصحيح – كتاب الإيمان، رقم الحديث ٣٩، والطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨، ج٢، ص١٧.

تعجب المشركون وقالوا: إلهاً واحداً؟ لئن كان صادقاً فليأتنا بآية، فأنزل الله: ﴿إن في خلق السموات والأرض..﴾ إلى قوله ﴿لقوم يعقلون﴾ قلت (أي السيوطي): هذا معضل لكن له شاهد، أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن عطاء قال: نزل على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ فقال كفار قريش بمكة: "كيف يسعُ الناس إله واحد؟ فأنزل الله: ﴿إن في خلق السموات والأرض..﴾ إلى قوله: ﴿لقومٍ يعقلون﴾[1].

وينتقد صاحب المنار هذا الرواية فيقول:

"أرأيت هذا الاتصال المحكم بين الآية وما قبلها؟إن بعض المفسرين قد قطع عُراه وفصمها، وجعل الآية جواباً لقومٍ قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك"، قاله الجلال[2]. ويقول الأستاذ الإمام: إن سبب النزول إنما يُحتاج إليه في آيات الأحكام؛ لأن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم، تعين على فهمه وفقه حكمته وسره، ومثلها ما فيه إشارة إلى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها، ومصيبة المؤمنين في أحد، وأما الآيات المقررة للتوحيد، وهو المقصود الأول من الدين، فلا حاجة إلى التماس أسباب لنزولها، بل هي لا تتوقف على انتظار السؤال، وإنما كان يبين عند كل مناسبة ما عساه يكون قد قارن نزولها من حادثةٍ أو سؤال. مثل هذا الذي ذكر آنفاً، فهو إن صح رواية لا يزيدنا بياناً في فهم الآية، ولا يصح أن يُجعل سبباً لنزولها لا سيما بعد الذي عُلم من اتصالها بما قبلها كما يليق ببلاغة القرآن"[3].

---

(١) السيوطي، لباب النقول ٣١/١-٣٢، وقد أخرجه الطبري بسنده عن عطاء، انظر: الطبري، جامع البيان، ٦١/٢/٢، والقرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٢، ص١٩١-١٩٢، وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦، ج١، ص٢٠٨.

(٢) وعبارته: "ونزل لما قالوا: (صف لنا ربك) "وإلهكم.." انظر الجلالين (المحلي والسيوطي)، تفسير الجلالين، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٥، ٢٦/١، والرواية أيضاً عند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٩١/٢، وغيره.

(٣) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار ٥٦/٢.

ثم يقول: "ومثل هذا السبب يجعل القرآن مبدداً متفرقاً لا ترتبط أجزاؤه ولا تتصل أنحاؤه"[1]، ثم ينتقل إلى نقد سبب نزول آية (وإلهكم إله واحد)، وهو أن المشركين قالوا: كيف يسع الناس إله واحد؟ فيقول: "كأنهم لم يكونوا قد سمعوا عليه دليلاً، وكأن هذه الدعوة لم تكن قد طرأت على أذهانهم ولا طرقت أبواب مسامعهم؟ على أن النبي ﷺ كان قد أقام فيهم يدعوهم إلى التوحيد عشر سنين ونيفاً، وسبق لهم التعجب منه: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ (ص: ٥)، ومعظم ما نزل بمكة آيات وبراهين عليه، فكيف نسلم أن ما نراه في التنزيل المدني من آيتين متصلتين إحداهما في التوحيد والأخرى في دليله، قد كان من الفصل بينهما أن أنزل الدليل بعد المدلول بزمن طويلٍ وسبب متأخر"[2].

وهو في هذا النقد يؤكد على قضية في غاية الأهمية، وهي معرفة تاريخ نزول الآيات، فالرواية التي نقلها الجلال أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: "انسب لنا ربك" فأنزل الله: ﴿وإلهكم إله واحد..﴾. وعلى فرض صحتها، لا يمكن أن تكون سبباً لنزول آيات من سورة البقرة ، لأمور منها:

– بدأ نزول سورة البقرة بالمدينة، والمشركون الذين اعتادوا أن يوجهوا الأسئلة المتعنتة للنبي ﷺ كانوا بمكة.

– موضوع التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة والتوجه إليه هو أساس الدين وركنه الركين، وهو موضوع الجدال والحوار والدعوة الذي كان يعرضه النبي ﷺ في كل وقت وكانوا يرفضونه بوسائلهم وطرقهم المختلفة.

– الرواية "انسب لنا ربك" ذكرها عدد من المفسرين سبباً لنزول سورة الإخلاص، "قل هو الله أحد"[3]. فإذا صحت هذه الرواية[1] فأجدر أن تكون سبباً لنزول سورة

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار ٢/ ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ٢/ ٥٦ – ٥٧.

(٣) الطبري، جامع البيان ١٢/٣٠/ ٣٤٢ – ٣٤٣، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٠٤ – ٦٠٥.

الإخلاص المكية، حتى لا يكون الفاصل الزماني طويلاً بين الآيتين المتصلتين في سورة البقرة (وإلهكم إله واحد..) والتي بعدها، كما أشار صاحب المنار.

– وهذا نموذج آخر يؤكد فيه صاحب المنار على أهمية السياق في فهم آيات القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا..﴾ (النساء: ٨٨). وقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾ (النساء: ٨٧). يقول مبيناً صلة هذه الآية بما قبلها "ابتداء هذه الآيات بالفاء لوصلها بما سبقها السياق لا يزال جارياً في مجراه من أحكام القتال وذكر شؤون المنافقين والضعفاء فيه.." [٢].

ويرد قول من زعم أن الفاء في (فما لكم) للاستئناف قائلاً: "وزعم بعضهم أن الفاء للاستئناف، وهذا لا معنى له، وإنما يخترع الجاهل تعليلات ومعاني لما لا يفهمه، وقد يخترع الروايات، فالآية مرتبطة بما قبلها أشد الارتباط؛ إذ الكلام السابق كان في أحكام القتال.. وقد ختمه بقوله: "الله لا إله إلا هو" أي لا إله غيره يُخشى ويُخاف أو يُرجى، فتترك تلك الأحكام لأجله، ثم جاء بهذه الآيات موصولة بما قبلها بالفاء، وهي تفيد تفريع الاستفهام الإنكاري فيها على ما قبله، أي إذا كان الله تعالى قد أمركم بالقتال في سبيله، وتوعّد المبطئين عنه والذين تمنوا تأخير كتابته عليهم، وإذا

---

(١) قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغاني حدثنا أبو جعفر الرازي حدثنا الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: "قل هو الله أحد.." وكذا رواه الترمذي وابن جرير عن أحمد بن منيع، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد محمد بن ميسر به، ثم رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن أبي الربيع عن أبي العالية، فذكره مرسلاً ثم لم يذكر حدثنا، ثم قال الترمذي وهذا أصح من حديث أبي سعيد، وأخرج نحوه الحافظ أبو يعلى الموصلي بسنده عن جابر ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف عن شريح فذكره، وقد أرسله غير واحد من السلف، وروى عبيد بن إسحاق العطار عن قيس ابن الربيع عن عاصم أبي وائل عن ابن مسعود نحوه، ورواه الفريابي وغيره عن قيس عن أبي عاصم عن أبي وائل مرسلاً" انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٠٤ – ٦٠٥. فالحديث رُوي مرسلاً من أكثر طرقه، وقول الترمذي في النص السابق: "وهذا أصح" يعني أن إرسال الحديث هو الصحيح الثابت بخلاف رفعه إلى الصحابي.

(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٥/ ٣١٨.

كان لا إله غيره فيترك أمره وطاعته لأجله، فما لكم تترددون في أمر المنافقين وتنقسمون فيهم إلى فئتين"[1].

وهو يرى أنه ما دام السياق بهذا الترابط والاتصال، والآيات مفهومة واضحة فلا حاجة لما ذكره المفسرون من أسباب نزول، وبناءً على ذلك نجده يذكر الروايات الواردة في أسباب نزول هذه الآية ويصفها بأنها "روايات متعارضة"[2]. ولأن بعض هذه الروايات صحيحة السند، فإن صاحب المنار يوجه الرواية التي صحّ سندها، توجيهاً لا يطعن في صحتها ولكنه يجعلها بعيدة عن السببية.

والرواية المقصودة هنا ما رواها البخاري وغيره عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد فرجع ناس كانوا خرجوا معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ (النساء: ٨٨)[3].

يقول صاحب المنار مشيراً إلى هذه الرواية:

"من الروايات ما يكون نصاً أو ظاهراً في التاريخ وتعيين الواقعة، إلا أن تكون الرواية منقولة بالمعنى كما هو الغالب، وحينئذٍ تكون الرواية في سبب النزول ليست أكثر من فهمٍ للمروي عنه في الآية، ورأي في تفسيرها، يخطئ فيه ويصيب، ولا يلزم أحداً أن يتبعه فيه، بل لمن ظهر له خطؤه أن يرده عليه، ولا سيما إذا كان ما يتبادر من معنى الآيات يأباه، وقد رأيت أن بعضهم[4] رد رواية الصحيحين في جعل المراد

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٥/ ٣٢١.

(٢) المرجع السابق، ٥/ ٣١٨.

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، رقم الحديث (٤٠٥٠) وانظر أيضاً: الطبري، جامع البيان، ١٩٢/٥/٤.

(٤) منهم الطبري في تفسيره ١٩٢/٥/٤ – ١٩٥ حيث أورد الروايات التي تنص على أن الآية نزلت في الذين تخلفوا عن الرسول يوم أحد، والروايات التي تنص على أن الآية نزلت في قومٍ كانوا قدموا المدينة من مكة،

بالمنافقين هنا فئة عبد الله بن أبي سلول الذين رجعوا عن القتال في أُحد، واستدلوا بما رأيت من ذكر المهاجرة في الآية الثانية: [يعني قوله تعالى: فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله] (النساء: ٩٨)، ويمكن تأويل هذا اللفظ بما تراه أقوى منه في ردّ هذه الرواية وما دونها في قوة السند من سائر الروايات (أي التي جعلت الآية في منافقي المدينة) أن الأحكام التي ذكرت في هذه الآيات لم يعمل النبي ﷺ بها في أُحد ممن قالوا إنها نزلت فيهم، وهو قتلهم حيث وُجدوا بشرطه، وهذه آية من آيات صد بعض الروايات الصحيحة السند عن الفهم الصحيح الذي يتبادر من الآيات بلا تكلف"[1].

وهذا النص في تأويل الرواية يتضمن أموراً منها:

- الإشارة إلى الفرق بين ما كان من باب التفسير وما كان من باب التاريخ من الروايات، فالرواية حين تذكر تاريخاً كغزوةٍ أو حادثة معروفة الزمان تكون تاريخاً ويمكن أن تعدّ من روايات أسباب النزول، أما إذا كانت الرواية منقولة بالمعنى دون إشارة إلى تاريخ معين، فإنما من باب التفسير وهي عندئذٍ فَهْمٌ فَهِمَه ذلك الذي روى الرواية، وهذا الفهم قد يكون صواباً وقد يكون خطأً، أي أنه ليس ملزماً لنا بقبوله.

فأظهروا للمسلمين أنهم مسلمون، ثم رجعوا إلى مكة وأظهروا الشرك، والروايات التي تقول إن الآية نزلت في قومٍ من أهل الشرك، كانوا أظهروا الإسلام بمكة، وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، والروايات التي تقول إن الآية نزلت في قومٍ كانوا بالمدينة فأرادوا الخروج منها نفاقاً، والروايات التي تقول إن الآية نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله في أمر أهل الإفك ثم قال مرجحاً: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في اختلاف أصحاب رسول الله في قومٍ كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن اختلاف أهل ذلك إنما هو على قولين: التأويل في أحدهما أنهم قوم كانوا من أهل مكة.. والآخر أنهم قوم كانوا من أهل المدينة، وفي قول الله تعالى: "فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا" أوضح الدليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة، لأن الهجرة كانت على عهد رسول الله ﷺ إلى داره ومدينته من سائر أرض الكفر، فأما من كان بالمدينة في دار الهجرة مقيماً من المنافقين وأهل الشرك، فلم يكن عليه فرض هجرة، لأنه في دار الهجرة كان وطنه ومقامه.

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٣٢٠ – ٣٢١.

– يرى أن رواية البخاري المذكورة سابقاً لا تصلح سبباً للنزول، فهي تشير إلى أن الاختلاف بين المسلمين في المنافقين كان يوم أُحد، مع أن الآية التالية للآية –محل البحث– تذكر موضوع المهاجرة: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ (النساء: ٨٩) فهل يُطلب من أهل المدينة أن يهاجروا؟ وإلى أين؟

– يؤكد على أهمية رعاية السياق وعدم تقطيعه ببيان أن الآية التالية طلبت من الرسول والمسلمين أمراً وهو: ﴿فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ (النساء: ٨٩)، وأن الرسول وأصحابه لم يفعلوا شيئاً من ذلك تجاه عبد الله بن أبي وأتباعه، وليس من المعقول أن يترك الرسول أمر ربه أو يؤخر تنفيذه، فدل هذا على أن المراد بالمنافقين في هذه الآية غير المنافقين الذين كانوا بالمدينة.

ثم ينقل رشيد رضا قولاً عن الأستاذ الإمام (محمد عبده)، وهو قريب مما اختاره الطبري، ولكن بتفصيل وبيان أكثر فيقول:

"وهذا ما أكده الأستاذ الإمام بقوله: والمنافقون هنا غير ما نزلت فيهم آيات البقرة وسورة المنافقين وأمثالهن من الآيات، والمراد بالمنافقين هنا فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين والولاء لهم، وهم كاذبون فيما يُظهرون، ضلعهم مع أمثالهم من المشركين، ويحتاطون في إظهار الولاء للمسلمين إذا رأوا منهم قوة، فإذا ظهر لهم ضعفهم انقلبوا عليهم وأظهروا لهم العداوة، فكان المؤمنون فيهم قسمين، منهم من يرى أن يعدوا من الأولياء ويُستعان بهم على سائر المشركين المحادين لهم جهراً، ومنهم من يرى أن يعاملوهم كما يعامل غيرهم ممن لا ينافق بل يجاهر بالعداوة، فأنكر الله عليهم ذلك وقال: ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ (النساء: ٨٨) أي كيف تتفرقون في شأنهم والحال أن الله تعالى أركسهم وصرفهم عن الحق الذي أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك والمعاصي"[1].

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٥/ ٣٢١ – ٣٢٢.

ثانياً– تحديد الآيات التي يُلتمس لها سبب نزول:

يبين صاحب المنار أن هناك آيات لا تحتاج إلى سبب نزول، وآيات يلتمس لها سبب نزول ليتم فهمها في ضوء السبب، وقد سبقت الإشارة إلى أن آيات القرآن منها ما نزل ابتداءً فلا يحتاج إلى سبب نزول، ومنها ما نزل لسبب.

لكن الذي يبحثه صاحب المنار هنا، هي الآيات التي ورد في سبب نزولها روايات، وهو يريد أن يبين أن بعض هذه الروايات لم تكن في موضعها لأنها أوردت في آيات لا تحتاج إلى سبب نزول، فمن هذه الآيات بصفة عامة آيات العقيدة، إذ يرى أنه لا يتوقف نزولها على سبب، ويمثل لذلك بأمثلة عديدة منها قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ (البقرة: ١٦٣).

وينقل عن الإمام محمد عبده نصاً يشكل قاعدة مأمونة بالنظر إلى الموضوعات التي تتحدث عنها الآيات وهو قوله: "إن سبب النزول إنما يُحتاج إليه في آيات الأحكام؛ لأن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسره، ومثلها ما فيه إشارة إلى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها ومصيبة المؤمنين في أحد، وأما الآيات المقررة للتوحيد وهو المقصود الأول من الدين فلا حاجة إلى التماس أسبابٍ لنزولها بل هي لا تتوقف على انتظار السؤال[1].

ثالثاً– ضرورة أن يكون سبب النزول مشاراً إليه في الآية أو ظاهراً فيها، لا أن يُؤتى به من رواية خارجة عن النص القرآني:

ويوضح صاحب المنار هذه القاعدة بعددٍ من الأمثلة، منها:

قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى،

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٢/ ٥٦.

واتقونِ يا أولي الألباب﴾ (البقرة: ١٩٧)، يقول: "قالوا إن هذا نزل في ردع أهل اليمن عن ترك التزوّد زعماً أنه مقتضى التوكل على الله، فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباسٍ أنه قال: "كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فنزلت"[١]، فالمراد بالتقوى على هذا اتقاء السؤال وبذل ماء الوجه، قال الأستاذ الإمام: وهو غير ظاهرٍ من العبارة، بل المتبادر منها: أن الزاد هو زاد الأعمال الصالحة، وما تدخر من الخير والبر، كما يرشد إليه التعليل في قوله: "فإن خير الزاد التقوى" والمعنى من التقوى معروف، وهو ما به يُتقى سخط الله وليس ذلك إلا البر والتنزه عن المنكر، ولا يعلل بأن التقوى خير زاد إلا وهو يريد التزود منها، أما المعنى الذي ذكروه فلا يصلح مراداً من الآية لأنه لولا ما أوردوا من السبب لم يخطر ببال سامع اللفظ، والسبب ليس مذكوراً في الآية ولا مشاراً إليه فيها، فلا يصلح قرينة على المراد من ألفاظها. نعم إن السبب قد ينير السبيل في فهم الآية، ولكن يجب أن تكون مفهومة بنفسها، لأن السبب ليس من القرآن، ولذلك أتمها بقوله: "واتقونِ يا أولي الألباب" يعني من كان له لبٌ وعقلٌ فليتقني فإنه يكون على نورٍ من فائدة التقوى وأهلاً للانتفاع بها"[٢].

رابعاً– النظر في عموم النصوص القرآنية وعدم تقييدها بحوادث معينة:

فقد تتحدث الآيات عن موضوعٍ معينٍ، وتكون مشتملة على بعض الحوادث التي تقع، ومبينة لحكمها، فيظن بعض المفسرين أن هذه الحادثة أو تلك هي سبب النزول.

ومن الأمثلة التي يوردها صاحب المنار ما رواه ابن أبي حاتم وأبو يعلى بسند جيد عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً فقال لأهله احملوني،

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح مع فتح الباري، كتاب الحج، رقم الحديث ١٥٢٣ وانظر: الطبري، جامع البيان ٢٧٩/٢/٢ – ٢٨٠.

(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٢/ ٢٢٩.

فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، فنزل الوحي: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً..﴾[1] (النساء: ١٠٠).

ويتحدث صاحب المنار عن موضوع الهجرة من خلال تفسيره لآيات سورة النساء بدءاً من قوله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟.. ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (النساء: ٧٩ –١٠٠) فيبين أن هذه الآيات مع ما قبلها نزلت في أحكام الحرب، و لم تنزل منفردة، ولكن رواة أسباب النزول عندما رووا بعض الوقائع والحوادث نزّلوا هذه الآيات عليها وعدوا تلك الوقائع أسباب نزول.

ثم يقول: "هذه الآيات في الهجرة نزلت في سياقٍ واحدٍ متصلاً بعضها ببعض كما قلنا، وممن شمله الوعد من المهاجرين في تلك الأثناء ضمرة بن جندب، فعدّوا خبر هجرته من أسباب نزول الشق الأخير من هذه الآية، وما هو بسببٍ إلا في اصطلاحهم الذي يتساهلون فيه بإطلاق السبب"[2]. وظاهر من كلامه أنه لا يرتضي إدراج هذه الحوادث في أسباب النزول؛ إذ يرى أن هذه الحوادث كانت تقع، فتنزل آيات القرآن الكريم لا لتجيب عليها أو تعالجها، ولكن الآيات تنزل في أحكامٍ عامة وبيانٍ لقضايا كبرى، فتشتمل على مثل هذه الحوادث الجزئية الصغيرة، وهذا يعني أن هذه الحوادث والوقائع مندرجة تحت عموم النصوص القرآنية وداخلة فيها، وليست سبباً لنزولها.

---

(١) الطبري، جامع البيان ٤/٥/٢٣٨ –٢٤١، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٤٩، والعدوي، محمد خير، معالم القصة في القرآن الكريم، دار العدوي، عمان، ١٩٨٨، ص١٤٨.

(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٢/٢٣١.

خامساً- رفض قضية تعدد الأسباب للآية الواحدة إذا كان الفاصل الزمني بين السببين أو الأسباب طويلاً:

إن قضية تعدد الأسباب للنازل الواحد من القضايا التي بحثها كثير من العلماء ورأوا أنها قضية مقبولة وواقعة فعلاً "لأن من الطبيعي في أي مجتمع أن تكون هناك أحداث معينة متشابهة، ولا مانع من أن تكون هذه الأحداث قد وقعت في وقتٍ واحدٍ، أو أوقات متقاربة، وهذه الأحداث المتشابهة سيكون علاجها واحداً، حتى تكون قواعد الأحكام منضبطة ثابتة"(١).

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم..﴾. (النساء: ١٠). فقد رُوي في سبب نزولها روايتان هما:

- عن جابر قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماءٍ فتوضأ منه ثم رشّ عليّ فأفقتُ، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: "يوصيكم الله في أولادكم"(٢).
- وعن جابر قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ بابنتين لها، فقالت: يا رسول الله، هاتان بنتا ثابت بن قيس، أو قالت: سعد بن الربيع، قُتل معك يوم أحد، وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما، فلم يدعْ لهما مالاً إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما ينكحان أبداً إلا ولهما مال. فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت سورة النساء وفيها: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين" إلى آخر الآية،

(١) عباس، فضل حسن، إتقان البرهان، ص ٢٨٤.

(٢) البخاري/ الجامع الصحيح مع فتح الباري، كتاب التفسير، سورة النساء، باب (يوصيكم الله في أولادكم)، رقم الحديث (٤٥٧٧).

فقال لي رسول الله ﷺ: ادعُ لي المرأة وصاحبها، فقال لعمهما: أعطهما الثلثين وأعطِ أمهما الثمن، وما بقي فلك[1].

فهاتان الروايتان يمكن أن تكون الآية نزلت بسببهما معاً، وذلك لتقارب زمانهما، أما الذي ينكره صاحب المنار فهو أن يكون بين الحادثتين زمن طويل، ومدة متباعدة ثم يأتي من يعدّ الآية نزلت فيهما معاً، وفي هذا يقول: "ومن المعهود أنهم يجمعون بين الروايات في مثل هذا بتعدد الوقائع ونزول الآية عقبها، ولا يمنعهم من هذا أن يكون بين الوقائع تراخٍ وزمن طويل.." [2].

ويقول بعد أن ذكر جميع الروايات الواردة في قوله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا..﴾ (المائدة: ٨٢). "هذا وإن المحدثين يجمعون بين أمثال هذه الروايات بتعدد الوقائع، فإن لم يمكن الجمع اعتمدوا على ما كان أقوى سنداً"[3].

المبحث الثالث : الإسرائيليات:

تعريفها: مصطلح أطلقه العلماء على القصص والأخبار اليهودية والنصرانية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي بعد دخول بعض اليهود والنصارى في الإسلام حقيقة أو تظاهراً. ثم توسع المصطلح ليشمل كل دخيل على التفسير، ولو كان مروياً عن غير إسرائيليين، أو متعلقاً بقصص غير إسرائيلي[4].

وقد كان دخول هذه المرويات غالباً عن طريق أناس من أهل الكتاب دخلوا في الإسلام ككعب الأحبار ووهب بن منبه، ووثق بهم المسلمون فرووا عنهم كثيراً من

(١) الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي، أسباب النزول، عالم الكتب بيروت، د.ت، ص٩٦-٩٧.

(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٥/ ٣٢٠.

(٣) المرجع السابق، ٣٢١/٥.

(٤) العدوي، محمد خير، معالم القصة في القرآن الكريم، ص ١٤٨.

obeikandl.com

هذه الروايات، كما كان بعض أهل الكتاب ممن لم يدخلوا الإسلام يلقون بمثل هذه المرويات إلى المسلمين، فينقلها بعض الرواة استشهاداً بها لتفسير أو نحو ذلك، وقد كان دخول هذه الإسرائيليات ضعيفاً في عهد الصحابة ثم بدأ يزداد ويكثر في عهد التابعين.

وكانت طريقة تدوين التفسير والحديث في عصر التدوين، أن تذكر الروايات مقرونة بأسانيدها، حتى يمكن عن طريق نقد السند معرفة درجة المروي من الصحة والضعف.

ثم وجد بعد ذلك من المفسرين والمحدثين من اقتصر في تدوين ما يُروى في التفسير أو الحديث على المروي مجرداً عن السند، وكان هذا العمل في مرحلة التدوين طامة كبرى، ذلك لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر في هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها، ثقة منه بأصحابها، وجعل بعض من كتبوا بعد ذلك في التفسير يغفلون عما حوت من أباطيل وأكاذيب، معتقدين صحتها وصدقها[1]. هذه الروايات التي دخلت في التفسير وغيره كان لها أثر سيئ على فهم الآيات القرآنية لدى من أخذ بها، فمن جهة كان لها دور في محاولة تمزيق السياق القرآني الواحد، ومن جهة أخرى أدخلت على المسلمين من القصص الخرافية الباطلة ما أفسد عليهم الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كثيراً ما تعارضت هذه الروايات الكاذبة مع أصول العقيدة ومعطيات العلم الصحيح.

وكان رأي رواة الأخبار أن يعرضوا هذه الروايات على علم مصطلح الحديث الشريف، فيحكموا بصحة هذا السند أو ضعفه دون كبير اهتمام بنقد المتن وبيان اضطرابه أو تعارضه مع صريح النصوص القرآنية ومسلّمات العقيدة. وقد كان للثقة ببعض الرواة دور كبير في قبول كثير من الروايات ومحاولة تأويل الآيات لتتفق مع هذه الروايات.

---

(١) الذهبي، محمد السيد حسين، الإسرائيليات في التفسير والحديث، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٠. ص٢٩.

- **فما هو دور تفسير المنار وما هو موقفه إزاء كل ذلك؟**

يبيّن صاحب المنار موقفه من الروايات الإسرائيلية بوضوح فيقول[١]:

"وقد قلت لكم غير مرة إنه يجب الاحتراس في قصص بني إسرائيل وغيرهم من الأنبياء، وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلوم اليوم يقولون معنا: إنه لا يوثق بشيءٍ من تاريخ تلك الأزمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحرير والبحث واستخراج الآثار، فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يوثق بها، لحُسن قصدهم، ولكننا لا نعوّل على ذلك بل ننهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته".

ويقول في موضع آخر[٢]: "ولكن اليهود كانوا يلقون إلى المسلمين أخباراً من خرافاتهم أو مخترعاتهم ليودعوها كتبهم ويمزجوها بدينهم، ولذلك نجد في كتب قومنا من الإسرائيليات الخرافية ما لا أصل له في العهد القديم، ولا يزال يوجد فينا من يقدّس كل ما رُوي عن أوائلنا في التفسير وغيره ويرفعه عن النقد والتمحيص، ولا يتم تمحيص ذلك إلا لمن اطلع على كتب بني إسرائيل". وفي موضع ثالث يقول: "كان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره عند هذه الإسرائيليات من غير بيانٍ فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لا بد أن يكون له أصل مرفوع إلى النبي ﷺ؛ لأنه لا يُعرف بالرأي، فيعدونه من الموقوف الذي له حكم المرفوع"[٣].

من خلال هذه العبارات وأمثالها – وهي كثيرة – يمكن استخلاص أبرز معالم منهج تفسير المنار في التعامل مع الإسرائيليات وهي:

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ١/ ٣٤٧.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٢٦٧ – ٢٦٨.

(٣) المرجع السابق ٨/ ٣٥٦.

أولاً : الوقوف مع النص القرآني في دلالاته وهديه دون أن نتجاوز ذلك إلى غيره، وهذا يشير إلى أن فهم النص القرآني يتم دون الحاجة إلى هذه الإسرائيليات.

ثانياً : الأصل رفض هذه الروايات إلا إذا صحت روايتها ووافقت ما يُفهم من القرآن، ففي هذه الحالة يمكن قبولها لتوضيح بعض القضايا.

ثالثاً : اعتماد منهج علمي في رفض هذه الروايات وردّها وهو ممثل في :

أ- الموازنة بين ما رواه أصحاب الأخبار في كتب التفسير من الإسرائيليات، وما هو موجود فعلاً في التوراة والإنجيل لبيان الفروق والاختلافات.

ب- مناقشة هذه الروايات لبيان ما فيها من أكاذيب وخرافات تصادم النقل والعقل.

ج- كل ما خالف الدين أو العلم اليقيني، لا بد من القطع ببطلانه وكذبه.

د- الاعتماد على ما يقرره العلم وأهل العلم بالتاريخ والآثار؛ لأن تاريخ تلك الأمم غير واضح المعالم، ولم يصل العلماء إلى إدراك كثير من أسراره وخفاياه.

هـ- إحسان الظن بالمفسرين الذين رووا هذه الإسرائيليات عن حسن قصد، ولكن هذا لم يمنع صاحب المنار من توجيه النقد واللوم الشديد أحياناً إلى بعض المفسرين الذين ولعوا بهذه الروايات، والثناء على بعض المفسرين الذين انتقدوها ومحّصوها، أو أعرضوا عن روايتها لعدم ثقتهم بها.

و- الاستعانة بمعطيات العلم الصحيح وحقائقه ليفهم القرآن في ضوئها بعيداً عن الآثار والمرويات الباطلة المناقضة للعلم.

وفيما بعض الأمثلة التي وضّحت معالم المنهج:

ففي قوله تعالى: ﴿ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم..﴾ (البقرة: ٢٤٣).

يقول صاحب المنار: "رووا في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت روايات من الإسرائيليات التي ولع بها المفسرون وكلفوا بتطبيق كتاب الله تعالى عليها، وأشهرها أبعدها عن السياق وهي رواية السُدّي[١].

وبعد أن يسوق الرواية بطولها كما وردت في تفسير الجلالين[٢]، يوجه نقده إلى الجلال قائلاً: "على هذه الرواية اقتصر الجلال مع علمه بأن السدي هذا هو محمد بن مروان الكوفي المفسر الكذاب كما قال ابن جرير وغيره، وليس هو إسماعيل السدي التابعي الذي وثّقه أحمد وضعّفه ابن معين[٣].

ثم ذكر رواية أخرى وقال بعدها: "وقلما نجد في العلماء من ينبه الناس لهذه الأكاذيب"[٤]، وبعد أن ذكر الرواية الثالثة وردّها انتقل إلى بيان ما يختاره في معنى الآية وما يفهم من السياق، مبيناً كيف ترتبط هذه الآية بالآيات التي قبلها وبعدها، فقال: "إذا علمت هذا فألقِ السمع إلى ما نرويه لك عن الأستاذ الإمام وتدبر ما فيه من حقائق علم الاجتماع في القرآن لتعلم أن حقائق هداية كتاب الله يتجلى منها في كل عصر للعارفين بالله ما لم يتجلَ لسواهم، وأنه الكتاب الذي لا تنتهي هدايته ولا تنفد معارفه.." [٥].

ثم قال: "أطلق القرآن القول في هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يعيّن عددهم ولا أمتهم ولا بلدهم، ولو علم لنا خيراً في التعيين والتفصيل لتفضل علينا بذلك في كتابه المبين، فنأخذ القرآن على ما هو عليه لا ندخل فيه شيئاً من الروايات الإسرائيلية التي ذكروها، وهي صارفة عن العبرة لا مزيد كمال فيها، والمتبادر من السياق أن

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٤٥٤/٥٢ – ٤٥٥.

(٢) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ٤٢/١ –٤٣.

(٣) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٢/ ٤٥٥.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) المرجع السابق ٢/ ٤٥٦.

أولئك القوم قد خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قلتهم، فقد كانوا ألوفاً أي كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن في أنفس الجبناء، فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقي من الموت، وما هو إلا بسبب الموت بما يمكّن الأعداء من رقاب أهله.." [1].

وبعد أن أتم تفسير الآية وبيّن المقصود بالموت هنا ذكر وجه ارتباط الآية بما بعدها وهو قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ (البقرة: ٢٤٤)، فقال: وقد قالوا إن الواو في قوله تعالى (وقاتلوا) للاستئناف؛ لأن الجملة المبدوءة بالواو هنا جديدة لا تشارك ما قبلها في إعرابه ولا في حكمه الذي يعطيه العطف.

قال الأستاذ الإمام: وهذا لا يمنع أن يكون بين الجملة المبدوءة بواو الاستئناف وبين ما قبلها تناسب وارتباط في المعنى غير ارتباط العطف والمشاركة في الإعراب كما هو الشأن هنا، فإن الآية الأولى مبينة لفائدة القتال في الدفاع عن الحق أو الحقيقة، والثانية آمرة به بعد تقرير حكمته وبيان وجه الحاجة إليه، فالارتباط بينهما شديد الأواخي لا يعتريه التراخي"[2].

وهكذا نجده حريصاً على رعاية قاعدة السياق وتقرير ما يؤيدها ويقويها، ونفي كل ما يضر بها، فالسورة في نظره كل واحد لا يتجزأ، وموضوع واحد تؤيده جميع الآيات وإن بدا في ظاهر الأمر أنها تطّرق موضوعات أخرى.

وقوله: "فنأخذ القرآن على ما هو عليه لا ندخل فيه شيئاً من الروايات الإسرائيلية التي ذكروها.." دليل واضح على رفض صاحب المنار لهذه الإسرائيليات، وحرصه على فهم النص القرآني دون الاستدلال بها أو الاعتماد عليها.

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار ٢/ ٤٥٧.

(٢) المرجع السابق ٢/٤٥٧.

obeikandi.com

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار..﴾ (آل عمران: ١٨٣)، نجد صاحب المنار ينقل نصاً من سِفْر اللاويين مستشهداً به على أنواع القرابين عند اليهود وأنهم كانوا يحرقونها بالنار بأيديهم ثم يوازن بين ذلك النص وبين ما رُوي في كتب التفسير من إسرائيليات مبيناً أن لا تطابق بين هذا وذاك[1]، ثم يقول: "فمن هنا تعلم أنهم كانوا يوقدون النار بأيديهم ويحرقون بها القرابين المحرقات، ولكن اليهود كانوا يلقون إلى المسلمين أخباراً من خرافاتهم أو مخترعاتهم ليودعوها كتبهم ويمزجوها بدينهم، ولذلك نجد في كتب قومنا من الإسرائيليات الخرافية ما لا أصل له في العهد القديم ولا يزال يوجد فينا من يقدّس كل ما رُوي عن أوائلنا في التفسير وغيره ويرفعه عن النقد والتمحيص، ولا يتم تمحيص ذلك إلا لمن اطلع على كتب بني إسرائيل"، وكأنه يريد أن يقول: إذا كانت هذه الروايات مخالفة لما هو معتمد عند أهل الكتاب فلماذا تصرّون يا معشر المسلمين على التمسك بها وأنتم تعلمون أنها من وضع أهل الكتاب وافترائهم، ولو كانت في كتبهم المعتمدة لما كنتم مطالبين بقبولها، فكيف وهي ليست في كتبهم أصلاً؟

وصاحب المنار في هذا يبين الفرق الكبير بين ما هو موجود في كتب أهل الكتاب، وما هو مرويّ في كتب التفسير من الإسرائيليات، وكأنه يشير إلى أن هذه الروايات مختلقة، فلا هي موافقة لما عند أهل الكتاب، ولا هي من الأحاديث المرفوعة إلى الرسول ﷺ، وهي في الوقت نفسه ليست مما يمكن الاجتهاد فيه، فإذا طبّقنا منهج النقد العلمي عليها والذي يشترط "إن كنت ناقلاً. فالصحة، أو مدّعياً فالدليل" ثبت لنا تهافت هذه الروايات ورفضها نقلاً وعقلاً.

---

(١) من ذلك ما نقله القرطبي ونصه: "وقيل كان أمر القرابين ثابتاً إلى أن نُسخت على لسان عيسى بن مريم، وكان النبي منهم يذبح ويدعو، فتنزل نار بيضاء لها دويّ وحفيف، لا دخان لها، فتأكل القربان" القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٢٩٦.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين..﴾ (المائدة: ٢٢)، نجد صاحب المنار يؤكد المعنى السابق مبيناً أن هناك روايات كثيرة من وضع اليهود، بدليل أنها ليست موجودة في التوراة، وفي هذا يقول[١]: "أما ما رُوي في التفسير المأثور من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الإسرائيليات الخرافية التي كان يبثها اليهود في المسلمين، فرووها من غير غزو إليهم كقولهم إن العيون الاثني عشر الذين بعثهم موسى إلى ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الأرض ومن فيها قبل أن يدخلها قومه، رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم في كسائه أو في حجزته، وفي رواية، كان أحدهم يجني الفاكهة فكان كلما أصاب واحداً من هؤلاء العيون وضعه في كمه مع الفاكهة.

ثم ينقل من سفر العدد ما نصه: "وأما القوم الذين صعدوا معه فقالوا: لا نقدر أن نصعد إلى الشعْب لأنهم أشد منا، وشنّعوا عند بني إسرائيل على الأرض التي تجسسوها، وقالوا: هي أرض تأكل أهلها وجميع الشعب الذين رأيناهم فيها طوال القامات، وقد رأينا من الجبابرة جبابرة بني عناق فصرنا في عيوننا كالجراد، وكذلك كنا في عيونهم"[٢].

ثم يقول: فأنت ترى أنه ليس في الرواية المعتمدة عند بني إسرائيل تلك الخرافات التي بثوها بين المسلمين في العصر الأول وإنما فيها من المبالغة، أنهم لخوفهم ورعبهم من الجبارين احتقروا أنفسهم حتى رأوها كالجراد، واعتقدوا أن الجبارين رأوهم كذلك.."[٣]. وهذا التأكيد والإلحاح مرة بعد مرة على المعنى نفسه يبيّن لنا بوضوح منهج صاحب المنار في رفضه لهذه المرويات وحرصه على دعوة المسلمين إلى رفضها

---

(١) ومثل هذا أورده الطبري في تفسيره ٦/ ١٧٤ – ١٧٥ والقرطبي ٦/ ١٢٥ – ١٢٧ عند تفسير الآية ٢٢ من سورة المائدة، بل أوردا ما هو أعجب من ذلك دون نقدٍ أو مناقشة.

(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ٣٣١/٦، وانظر: الطبري، جامع البيان ٦/ ١٧٥.

(٣) المرجع السابق، ٦/ ٣٣٢.

وتجنبها، لبطلانها من جهة، ولكونها لا تخدم النص القرآني -على فرض صحتها- من جهة أخرى[1].

وفي تفسير قصة خروج آدم من الجنة في سورة الأعراف نجد صاحب المنار يحذّر من الروايات الإسرائيلية؛ لأن أكثرها غير صحيح ولأنها مأخوذة عن زنادقة اليهود الذين دخلوا في الإسلام للكيد له، وكذا الذين لم يدخلوا فيه، ثم يتحدث عن سبب تسرّب هذه الإسرائيليات فيقول: "كان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره عند هذه الإسرائيليات من غير بيان فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لا بد أن يكون له أصل مرفوع إلى النبي ﷺ لأنه لا يعرف بالرأي، فيعدّونه من الموقوف الذي له حكم المرفوع"[2].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إن ربكم الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام..﴾ (الأعراف: ٥٤)، يتحدث صاحب المنار عن صلة هذه الآية بما قبلها وما بعدها ثم يبين المقصود بالأيام الستة فيقول: "وأما هذه الأيام الستة فهي من أيام الله التي يتحدد اليوم منها بعمل من أعماله يكون فيه، فإن اليوم في اللغة هو الزمن الذي يمتاز بما يحصل فيه من غيره، كامتياز أيامنا بما يحدها من النور والظلام.. ولا يعقل أن تكون هذه الأيام الستة من أيام أرضنا التي يُحدّ ليل اليوم ونهاره منها بأربع وعشرين ساعة من الساعات المعروفة عندنا، فإن هذه الأيام إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض فكيف يكون أصل خلقها في أيام منها.."[3].

ثم ينقل خلاصة آراء علماء الطبيعة في خلق الكون ويتحدث بعد ذلك عن قضية التدرج في الخلق مرجحاً أن هذا تم عبر قرون وأعوام طوال، مبيناً أن التدرج والنظام

---

(١) وانظر مثل ذلك في تفسير المنار، ٨/ ٣٥٥.

(٢) تفسير المنار، ٨/ ٣٥٦.

(٣) المرجع السابق، ٨/ ٤٤٥.

أدل على وجود الخالق وعلى عظمة قدرته من الخلق الجزاف الذي يقع دفعة واحدة، كما أنه أدلّ الدلائل على الإرادة والاختيار والعلم والحكمة في آثار القدرة[1].

وبعد هذا كله يأتي على ذكر المرويات والآثار ويردّها بطريقته المألوفة فيقول: "قد ورد في الأخبار والآثار أن هذه الأيام الستة هي من أيام دنيانا واقتصر عليه بعض مفسرينا[2]. وفي حديث أخرجه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: "أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل"[3]، وهذا ظاهر في أن الخلق كان جزافاً ودفعة واحدة لكل نوع في يوم من أيامنا القصيرة، فالجواب أن كل ما روي في هذه المسألة من الأخبار والآثار مأخوذ من الإسرائيليات لم يصح فيها حديث مرفوع. وحديث أبي هريرة هذا وهو أقواها مردود بمخالفة متنه لنص كتاب الله، وأما سنده فلا يغرنك رواية مسلم له به فهو قد رواه كغيره عن حجاج بن محمد الأعور المصيص عن ابن جريج، وهو قد تغير في آخر عمره، وثبت أنه حدّث بعد اختلاط عقله، كما في تهذيب التهذيب وغيره. والظاهر أن هذا الحديث مما حدث به بعد اختلاطه، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد إيراده في تفسير الآية: "وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قال: (في ستة أيام) ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس

---

(١) تفسير المنار ٨/ ٤٤٦ – ٤٤٨.

(٢) نقله الطبري ٨/ ٢٠٥ بسنده عن مجاهد وعقب عليه بقوله "ويوم من الأيام الستة كألف سنة مما تعدون" وعزاه القرطبي ٧/ ٢١٩، إلى مجاهد أيضاً وفسر اليوم بأنه من طلوع الشمس إلى غروبها، ونقل عن القشيري بأن اليوم بألف سنة.

(٣) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، رقم الحديث ٢٧٨٩ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

مرفوعاً والله أعلم"[1] أو فيكون رَفع أبي هريرة له من خلط حجاج بن الأعور. وقد هدانا الله من قبل إلى حل بعض مشكلات أحاديث أبي هريرة المعنعنة على الرواية عن كعب الأحبار الذي أدخل على المسلمين شيئاً كثيراً من الإسرائيليات الباطلة والمخترعة وخفي على كثير من المحدثين كذبه ودجله لتعبده .. على أن رواة التفسير المأثور أخرجوا عن كعب خلاف هذا كرواية ابن أبي شيبة عنه أنه قال: بدأ الله بخلق السموات والأرض يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وجعل كل يوم ألف سنة. وثمة آثار أخرى عن مفسري السلف في تقدير اليوم منها بألف سنة.

رواية الضحاك عن ابن عباس ومثله مجاهد وأحمد بن حنبل. وهذا دليل على أنهم وإن سمّوا تلك الأيام بأسماء أيامنا فإنهم لا يعنون أنها منها، على أن الخمسة الأولى مأخوذة من أسماء الأعداد الأولى"[2].

ويلاحظ أن صاحب المنار استند في رده لهذه المرويات -مع أن بعضها في الصحيح- إلى جملة أمور:

أولها: أن مقتضى الحكمة والإرادة أن يتم الخلق بالتدريج عبر مراحل ومدة زمنية طويلة بحيث يكون كل مخلوق في هذا الكون قد استوفى المدة الكافية لتكوينه، وهذا في نظره أدل على القدرة والحكمة، فالله سبحانه قادر على خلق المولود طفلاً في لحظة واحدة، لكن خلقة في تسعة أشهر وتدرجه في مراحل النمو أدل على قدرة الله وحكمته.

وثانيها: زعمه أن كل ما ورد من الأخبار في هذه المسألة مأخوذ من الإسرائيليات وليس فيها حديث واحد مرفوع. وأمام هذا القول نجده يرد حديث أبي هريرة (المرفوع) متناً وسنداً فمن حيث متنه يقول إنه مخالف لنص القرآن، لأن

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣٠، دار المعرفة - بيروت، طبعة أولى سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) تفسير المنار، ٨/ ٤٤٩.

القرآن يقول في ستة أيام وهذا الحديث يقول سبعة أيام. ومن حيث سنده يقول إنه من رواية حجاج الأعور عن ابن جريج، وحجاج هذا قد اختلط بآخر عمره وحدّث بعد اختلاطه. ثم يخلص إلى نتيجة وهي أن هذا الحديث موقوف على أبي هريرة وأبو هريرة أخذه عن كعب الأحبار ولكن حجاجاً الأعور رواه عن أبي هريرة عن الرسول فرفعه.

ثالثها: محاولته تأويل بعض مشكلات الحديث ومنها توزيع الخلق على أيام كأيام الدنيا بدلالة قوله: "وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة" فيقرر أن هذه الأيام ليست كأيام الدنيا، ويفسر اليوم بالمدة من الزمان الذي يمتاز بما يحصل فيه عن غيره، ويورد آثاراً وروايات ليؤيد هذا التفسير –وهو تفسير تقبله اللغة– ويبيّن أن تسمية تلك الأيام بأسماء أيامنا لا يعني أنها مثلها في المدة.

وبعد ذلك يتوجه إلى كعب الأحبار بالطعن والتجريح كما سبق بيانه. والناظر في تفسير المنار يلاحظ أن صاحبه يكثر من الطعن على كعب الأحبار في كل مناسبة ولا يراه عدلاً[1] كما يفعل جمهور أهل الجرح والتعديل[2]، وأن ثقة المسلمين بتعبده أوقعتهم في شرك رواياته التي تركت آثارها السيئة في منهجية التفكير والفهم الصحيح للقرآن الكريم.

خاتمة:

إن رؤية صاحب المنار وموقفه تجاه الروايات، لتؤكد لنا حرصه الشديد على فهم النص القرآني فهماً صحيحاً سليماً دون التقيد بالمرويات الضعيفة والهالكة، وأهمية

(١) انظر في ذلك تفسير المنار، ٩/ ١٨٥.

(٢) قال ابن حجر: كعب بن مانع الحميري، أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار: ثقة من الثانية، مخضرم. كان من أهل اليمن، فسكن الشام، مات في آخر خلافة عثمان، وقد زاد على المائة، وليس له في البخاري رواية، إلا حكاية لمعاوية فيه، وله في مسلم رواية لأبي هريرة عنه، من طريق الأعمش عن أبي صالح. انظر: ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين، تقريب التهذيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، ص٣٩٧.

رعاية قاعدة السياق وترابط الآيات والوحدة الموضوعية، دون تهاون بأسباب النـــزول إذا كانت ثابتة نقلاً ومعينة على فهم الآيات الكريمة. وإن هذه الرؤية توضح لنا منهج صاحب المنار في إطلاق النص القرآني وتحريره من قيود الروايات دون أن يكون ذلك داعياً إلى الانفلات وترك الضوابط التي تحكم القول بالتفسير وفهم القرآن.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

obeikandl.com